ابتداء من هذا العدد تنتظم صفحة (ثقافة مصر) ضمن صفحات المدى الثقافي مهتمة بالشأن الثقافي في مصر، على امل ان تتبعها صفحات ثقافية من بلدان عربية اخرى.
المدى الثقافي

الاستشراق الأميركي ..خمر قديمة في قوارير جديدة

"الاستشراق الأمريكي: الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ ١٩٤٥" آخر إصدارات المركز القومي للترجمة بالقاهرة الذي يترأسه د. جابر عصفور . الكتاب من تأليف الكاتب الأمريكي دوجلاس ليتل ،وترجمة وتقديم الكاتب والمترجم المصري القدير طلعت الشايب.

يبدأ هذا "السَفر الضخم" (٧٣٠ صفحة) بمقدمة المترجم التي يذكر فيها أن الرئيس الأمريكي باراك أوباما زار الشرق الأوسط بعد ستة شهور من توليه منصبه، حاملاً خطابا مختلفاً . جاء ،كما قال ، باحثا عن بداية جديدة بين بلاده والعالمين العربي والإسلامي . قال إن جزءاً من مسئولياته هو التصدي للصورة النمطية السلبية عن العرب والمسلمين في بلاده ، نافيا كذلك أن تكون الصورة النمطية عن أمريكا الإمبراطورية حقيقية.

تطرق إلى أمور محددة يعتقد أن "علينا معا" مواجهتها بجهد مشترك . لم يتحدث بلغة:نحن" و"هم" .خرج عن قاموس سلفه والمحافظين الجدد ومصطلحاتهم الغاشمة مثل" محور الشر" و"الدول المارقة" و"الخطر الأخضر" و"الفاشية الإسلامية" ،وغيرها .لم ينس أوباما ان يستشهد بآيات من القرآن الكريم ثلاث مرات.

هل هي بداية جديدة حقا؟.

الكتاب الذي بين يديك يتقصى جذور الاستشراق الأمريكي، ويعرض لك قصة العلاقة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ،بما يؤكد أن خطاب الرئيس الأمريكي الرابع والأربعين من جامعة القاهرة لم يكن سوى تنويع على لحن أساسي ،وحلقة جديدة من مسلسل النموذج الأمريكي للاستشراق بإخراج مبهر، أو قل هى خمر قديمة قدمها في آنية جديدة ، في صحة سياسات ثابتة تتنوع أساليب التعبير عنها مع تغير الظروف والأحوال ..والرؤساء.

هذه هي خلاصة مقدمة طلعت الشايب التي كان قد استهلها بفقرة دالة للكاتب الأمريكي هيرمان ميلفيل صاحب الرواية الشهيرة موبي ديك. وتقول الفقرة:"نحن الأمريكيين متفردون وشعب مختار . إننا إسرائيل زماننا . نحمل سفينة حريات العالم .لكم تشككنا في نظرتنا إلى أنفسنا ،وطالما ساورنا سؤال عما إذا كان المسيح السياسي قد جاء. ولكني أقول الآن إنه قد جاء متمثلاً فينا ،ولا يبقى سوى أن نعلن خبر مجيئه".

عبر تسعة فصول كبيرة يتتبع الباحث مسيرة الولايات المتحدة(بعد الحرب الثانية) تجاه الشرق الأوسط ،للسيطرة على البترول وعلى الأنظمة وعلى العقول .وما طرأ على هذه المسيرة من تغييرات في الخطط والتكتيك والأساليب داخل الهدف الاستراتيجي الأكبر: السيطرة . فمن الحرب الباردة إلى الحرب الساخنة ومن مساعدة الأنظمة الفاشية إلى مساعدة الأنظمة القومية ،ومن مساعدة الأنظمة الدينية السلفية إلى مساعدة المنظمات الإرهابية السلفية ،ومن مقاومة "الخطر الأحمر" إلى اختراع مقاومة "الخطر الأخضر" ومن الفوضى الهدامة إلى الفوضى الخلاقة.

عندما توقف "جورج دبليو بوش" في "ايوا" في يناير ٢٠٠٠ أثناء حملته الانتخابية ، ألمح إلى تغير لون الخطر الذي يواجه الولايات المتحدة من "الأحمر" (الشيوعية العالمية) إلى " الأخضر" (الإسلام) وفي الوقت نفسه كان مفكرون ومثقفون ومستشرقون أمريكيون مثل برنارد لويس وصمويل "هنتجتون ودانييل بايس يعتبرون الإسلام الراديكالي أخطر الإيديولوجيات الشمولية في القرن العشرين ، وينحون باللائمة على إدارة كلينتون التي أولت العولمة الاقتصادية اهتماماً زائداً وأغفلت الأصوليات الإسلامية.

قبل ذلك ،كان بوش الابن ،عندما فشل أبوه في الحصول على فترة ثانية وخسر أمام كلينتون عام ١٩٩٢ ،يعتقد أن السبب الرئيسي في ذلك الفشل هو عدم قدرة الأب على تعبئة القاعدة المسيحية الايفانجليكية في الحزب الجمهوري. وبعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة دعى برنارد لويس إلى لقاء ع الرئيس (بوش الابن) ونائبه(رامسفيلد) وأعضاء مكتب سياسات الدفاع ليقدم لهم فهمه للشرق الأوسط والعالم الإسلامي والدور الذي يجب أن تلعبه فيهما الولايات المتحدة . في هذا اللقاء أقر المستشرق" استخدام القوة العسكرية الأمريكية للإطاحة بصدام حسين ونظامه مؤكداً لمستمعيه أنه بعد تحقيق ذلك سوف تستطيع الولايات المتحدة سبك وتشكيل العراق ليكون نموذجاً للديمقراطية في المنطقة.

أما خطاب أوباما في جامعة القاهرة في يونيو ٢٠٠٩ فجاء تنويعاً على اللحن الأساسي الذي هو الاستشراق الأمريكي المؤسس على أسطورة" القدر الواضح : ، قدر أمريكا "العالم الجديد" ، الذي ليس لها فيه اختيار وهو قيادة العالم نحو المدنية والفضيلة أو "أمركة العالم" كما قال روزفلت عام ١٨٩٨.

يقدم المترجم بعد الفصول التسعة ثلاثة عشر ملحقاً إضافياً من عنده مضافة للطبعة العربية من بينها قرار تأميم قناة السويس ،ومبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط ،وخطاب السادات في الكنيست ،وخطاب أوباما في جامعة القاهرة.

المؤلف والمترجم

دوجلاس ليتل تخرج في جامعة ويسكنسون ١٩٧٢ وحصل على الدكتوراه من جامعة كورنيل .ويعمل أستاذاً للتاريخ بجامعة كلارك . متخصص في تاريخ الدبلوماسية الأمريكية ،وله اهتمام خاص بموقف أمريكا من الإسلام الراديكالي بعد١٩٦٧ والثورة الايرانية ١٩٧٩،وله عدا دراساته العديدة ،كتاب هام بعنوان "حياد الضغينة" : أمريكا وبريطانيا وأصول الحرب الأهلية الأسبانية ١٩٨٥.

وطلعت الشايب ،مترجم بارز، عمل مستشاراً للمشروع القوى للترجمة ،ثم حالياً مساعد المدير بالمركز القومي للترجمة،عضو اتحاد كتاب مصر ،ولجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة،ومجلس تحرير مجلة"أدب ونقد" ورئيس تحرير سلسلة "آفاق عالمية".

وله ترجمات عديدة من أهمها : حدود حرية التعبير ،المثقفون ، صدام الحضارات، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، الحرب الباردة الثقافية ، الفنون والآداب تحت ضغط العولمة ، البطء ، عاريا أمام الألهة، الحرير، الخوف من المرايا، هوس العمق، أصوات الضمير، مكتوب.

قبر من أجل نيويورك

من أهم الملاحق التي أرفقها المترجم بنهاية الكتاب عبارات من قصيدة أدونيس "قبر من أجل نيويورك" ،حيث كان الكاتب ليتل قد استشهد ببعض سطورها في الفصل التاسع من الكتاب ،يقول أدونيس فيها:

" نيويورك

حضارة بأربعة أرجل

كل جهة قتل وقتل وطريق إلى القتل

وفي المسافات أنين الغرقى

نيويورك

امرأة- تمثال امرأة

في يد ترفع مزقة يسميها الحرية ورق

نسميه التاريخ

وفي يد تختنق طفلة أسمها الأرض

...

والت ويتمان

ألمح رسائل إليك تتطاير في شوارع

مانهاتن

كل رسالة عربة مملأى بالقطط والكلاب

للقطط والكلاب القرن الواحد والعشرون

وللبشر الإبادة:

هذا هو العصر الأمريكي

..

ليكن دورنا الآن

وليسبح الزمن في ماء هذه المعادلة:

نيويورك+ نيويورك = القبر أو أي شيء يجيء من القبر

نيويورك- نيويورك = الشمس".

وكان ليتل قد علق على هذه القصيدة في فصله التاسع المعنون "ليست حرب بابا في الخليج "بقوله:" لعل قصيدة أدونيس تكون مادة أخرى ينبغي أن يقرأها جورج دبليو بوش . فأدونيس يبدأها كما يلي: سهما مدينة بأربعة أرجل تتقدم نحو القتل . نيويورك امرأة تمسك كما يقول التاريخ بإحدى يديها مزقة يقال لها الحرية ، وبالأخرى تخنق الأرض" .ثم يكمل بعد ذلك في سطور تتنبأ بشكل مخيف بأحداث الحادي عشر من سبتمبر:

"بالرغم من ذلك كله ، فأنت تلهث في فلسطين وهانوي، شرقاً وغرباً ، تنافس بشراً تاريخهم الوحيد هو النار. فلتتفتت تماثيل الحرية. من الجثث تنبت الآن المسامي كالزهور . ريح شرقية تقتلع الخيام وناطحات السحاب بأجنحتها".

ويعلق ليتل:" كتب أدونيس قصيدته عام ١٩٧١ في "جرينوش فيلدنج" على بعد ميلين من موقع البناء حيث كان العمال يضعون اللمسات الأخيرة على مركز التجارة العالمي.

تحية لهذا السفر الضخم (بكاتبه ومترجمه) الذي يفضح زيف وهم الحرية الأمريكي ،ويكشف القبضة المتوحشة الغاشمة تحت القفاز الحريري الناعم.

متابعة

ندوة عن مستقبل الشعر والحوار الثقافي

عيد عبد الحليم

بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على تأسيسها أقامت الدار المصرية اللبنانية بالتعاون مع المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة احتفالية ثقافية تضمنت عدة ندوات فكرية منها" الشعر العربي في مصر .. الواقع والتحديات" وهى الندوة التي شهدت حالة من الجدل بين الشعراء والنقاد والمشاركين فيها وهم د. صلاح فضل- والذي أدار الندوة- وفاروق شوشة ومحمد إبراهيم أبو سنة وأحمد سويلم ود. أحمد درويش ود. عبد اللطيف عبد الحليم(أبو همام) والذي بدا منحازا للشعر العمودي التقليدي نافياً ما عداه من الأشكال الشعرية ، في حين شهدت كلمات وشهادات الشعراء : أبو سنة" و"شوشة" و"سويلم" رؤية مغايرة حول قضايا الشعر في الأساس ، وأن ما يواجهه هو تجلى لحالة عامة من الانهيار لم يسبق لها مثيل ،فهناك انهيار في التعليم والصحافة ،وأصبحت الشكوى من اللغة العربية موضوعاً يمجه الناس. وأضاف شوشة أن إحدى أزمات الشعر أنه يختلف عن الرواية في قدرتها على تتبع الراهن والآني .

وليس معنى ذلك أن الشعر يسكن في أبراج عاجية ولكن طبيعة الشعر الرمزية الإيحائية تحتاج إلى فهم آخر، وأتصور أننا الآن في خضم مخاض شعري عسير ، في هذا المخاض تختلط الأشياء.

وأرجع شوشة وصول الرواية إلى مكانة متقدمة إلى عدة أسباب أهمها- من وجهة نظره- أن الروائيين لم يختلفوا- فيما بينهم- كما أختلف الشعراء ،ولم يدخلوا في معارك طاحنة أخذت من جماليات الرؤية الشعرية.

وأكد الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة أن قضية الشعر ستظل مطروحة على الدوام ذلك لأن الشعر –على حد تعبيره –هو "مشعل الحرائق وهو القادر على إخمادها" وهو القائد أيضا على أن يطلق عنان الخيال لهذه الأمة منذ أن رفعت راية النهضة في منتصف القرن التاسع عشر.

أختلف " أبو سنة" مع " شوشة" قائلاً: لا أتصور أن التجربة الشعرية تجربة لغوية فقط ،فالشعر له العديد من المعاني بعيدة الغور في روح الإنسان ،وهو أكثر تعبيراً عن مكون الإنسان ووجوده.

وأضاف "أبو سنة" قائلا: إن الواقع الشعري يتدفق عبر شرايين وجداول مرتبطة بالأجيال المختلفة. وإن رأى أبو سنة أن أزمة الشعر ترتبط بالواقع الذي نعيش فيه ، وإن كانت بدايات الأزمة في مرحلة السبعينات حيث انتشرت فكرة " الخلاص الفردي".

وعن قصيدة النثر قال أبو سنة : من الظواهر أن قصيدة النثر أصبحت هي نموذج اختيار الشعراء، ولم يقف أحد أمامهم ليصادرهم ، وأعتقد أن هذه القصيدة أتيح لها من وسائل النشر الكثير حتى أصبحت تمثل طوفانا حقيقياً يغمر الواقع الثقافي ،هذا الفيضان الشعري يضم في ثناياه كثيراً من الأعمال الحقيقية.

وتحدث الشاعر أحمد سويلم عن أزمة التلقي متسائلا :أين جمهور الشعر اليوم، مؤكداً أن الجمهور قد تقلص بصورة ملحوظة لدرجة يصدق معها القول بأن جمهور الشعر هم الشعراء أنفسهم.

في حين أكد د. صلاح فضل أنه قد يكون الشعر أقل غزارة من الرواية لكن المعيار الكمي ليس هو المعيار الحقيقي فنحن نحفظ أشعاراً لشعراء كتبوها منذ مئات السنين دون أن تفقد تصورها ووهجها ، فالحضور الشعري حضور قوى- على الأقل في مجتمعنا العربي.

وأضاف د. فضل قائلا" لقد كثر الكلام عن أن قصيدة النثر ناسخة لما قبلها من شعر، وهذا ما لا يمكن لدارس أن يرتضيه، فنحن بحاجة إلى التعدد ، فلا يمكن لأي سلوك شعري أن ينسخ ما عداه ، ولابد من الخروج من فكرة الصراع الثقافي ويجب أن نتجاوزه بكثير من التسامح والحوار.

ومن الملاحظات التي ساقها د. صلاح فضل الملاحظة الخاصة بوظيفة الشعر حيث قال: " إن وظيفة الشعر السياقية تتمثل في تنمية اللغة وتطويرها ،كما تتمثل في تطوير المشاعر الإنسانية، ويظل الشعر مثل الموسيقى جوهر الفن.

وأضاف د. صلاح فضل ملاحظات حول موقع الشعر من الأجناس الأدبية الأخرى في ظل التحولات التي شهدتها الخريطة الإبداعية قائلا:" كان الشعر هو الابن المدلل للغة العربية ، ثم رزق في القرن الأخير بأخت أخرى هي الرواية ، ،وهذا أفقده أحد أدواره فقد كان في العصور القديمة هو الوسيط الإعلامي. اما الروائي إبراهيم عبد المجيد فقد قال في مداخلته:" إن الشعر لغة ، فأنا حين أكتب رواية أطمح أن تكون شعراً،فالشعر في أعلى قمة الفنون بعد الموسيقى، وكذلك لم يكن الشعر –يوماً تهمة- ولكنه غاية كل الفنون ، ربما تعود أزمة الشعر في الخمسين عاما الماضية إلى كونه تخلى عن تراثه الشفاهي حيث كان يلقى في المحافل العامة والخاصة ،لكن مع تغيير البناء الشعري وانتقاله من الشعر التقليدي إلى الشعر الحر ثم إلى قصيدة النثر تغير الأمر كثيراً ،فالبناء الجمالي للشعر تقدم أما افتقاده للقراء فلا يعنى تأخره.

وجوه في القلب

المواطن "أصلان"

عيد عبد الحليم

عندما أراد الكاتب العالمي "جابرييل جارثيا ماركيز" أن يكتب سيرته الذاتية أختار لها عنوانا دالاً على رحلة طويلة من المعاناة اللذيذة في دنيا السرد وهو "عشت لأحكي" فجاءت شهادة واقعية لتاريخ أدبي خاص ،وقد صدرها بعبارة أكثر دلالة على تجربة الرواية بشكل عام وهى "الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، وإنما هي ما يتذكره وكيف يتذكره ليرويه".

وقد شهد السرد العربي مجموعة من الحكائين الكبار خلال القرن العشرين ،الذين لمسوا العصب العارى للكتابة من خلال العزف على "أنشودة البساطة" ،والتماس الحكاية من طين الأرض وناسها الطيبين. ولعل تجربة " إبراهيم اصلان" جاءت كامتداد طبيعي لما أسسه " يحيى حقي" من ضرورة وجود لغة وسطى تربط بين اللحظة السردية وشريانها الواقعي ، وإن تمايزت بكثافة الرؤية، وتنقية اللغة من معجمها المتعارف عليه ، ليخلق من تشظيها حالة درامية تتسم بالتعمق في اللحظة الآنية ،مع طرح شرطها التاريخي، دون تدخل منه كراو للحدث داخل بنية الحدث نفسه، بل يترك للفعل السردي رحابة في طرح متخيله ، دون أن يبوح بكونه راوياً عليماً رغم درايته الكاملة بما يكتب ومعرفته التامة عمن يكتب.

كتابة " أصلان" تشترط في قارئها أن يكون نقي الروح والقلب حتى يستطيع تلمس المعطيات الإنسانية العميقة التي تطرحها الكتابة.

وهو –من وجهة نظري- من أسهل الكتاب المصريين في القراءة واكثرهم اندماجاً مع شخصياته التي يكتب عنها،فهو يمارس الكتابة كفعل يومي،من خلال معايشة حية، وهذا ما أكسب رؤيته مرونة ربما لم تتوفر لسواه.

هو لاعب "يوجا" باقتدار، يتأمل ليستشف الحكمة من مكمنها ، فيؤرخ للمهمشين بعبارة واحدة ،باستطاعته أن يختصر التاريخ في قصة قصيرة.

أن يعبر عن علاقات متشابكة في جملة سردية لا تتعدى سطراً واحداً ، ربما يرى البعض أنه يكتب من منطق بلاغي هو "الإيجاز بالحذف" ، وأرى أنه بناء قدير ، أشبه بمثال فرعوني- في يده إزميل بسيط لكنه قادر على استنطاق الحجر، لتتوالد صور مبهرة ، يزيدها الزمان صلابة وقوة وجمالا وتماسكاً.

هو "سوريالي" بارع، يحسن بموسيقى الأشياء التي تنسكب على الورق انسكاباً ، فكل إنتاجه –القليل- بالمقارنة بأبناء جيله ، وبالمقارنة برحلته الطويلة مع القلم والتي استمرت لأكثر من أربعين عاما يمثل حلقة فريدة من خصوصية الكتابة العربية بداية من مجموعته القصصية "يوسف والرداء" مروراً بأعماله "مالك الحزين" و"وردية ليل" و"عصافير النيل" و"خلوة الغلبان" و"حكايات من فضل الله عثمان".

ربما تمضي سنوات طويلة ولا يكتب أصلان قصة واحدة ،لكنه في لحظة ما يخرج علينا بقصة عن" فضل الله عثمان" المكان الذي عاش فيه بمدينة إمبابة، فيأخذك إلى سحر المكان، بناسه وبساطته ، ولعل فيلم"الكيت كات" المأخوذ عن رواية "مالك الحزين" أول لقاء سينمائي بين الفن السابع وأدب أصلان يعطينا صورة تقريبية لرؤية هذ الكاتب المنغمس في التفاصيل الدقيقة، في محاولة لتنقية الروح الإنسانية من هزائمها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية إلخ.. ،أو على حد تعبير"أصلان" في إحدى شهاداته الإبداعية: "نحن عندما نكتب ، لا نكتب من أجل كل هذه الهموم التي لا يمكن كتابتها ، والتي هي رغم غيابها الظاهر ، هي الطاقة الوحيدة التي تملأ فضاء هذه المشاهد الصغيرة، إنها موجودة في المساحة الغائرة بين الحكمة والكلمة ، بين المقعد والفراش ، بين الشجرة ورقعة السماء والرصيف، موجودة بيني وبينكم".

لقد أثبت إبراهيم أصلان "موظف التلغراف البسيط" الذي تحول إلى روائي كبير، حاصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ٢٠٠٤ ، أن البسطاء ما زالوا قادرين على إثارة الدهشة، وأن الطيبين المتوحدين مع اللحظة المؤمنين بحق الإنسان في الحياة ، باستطاعتهم أن يطلقوا العصافير لتنقي السماء من دخان الأزمنة الرمادية.

توالي حملات التطرف ضد الحملة المصرية

أنقذوا الدولة المدنية

حلمي سالم

توالت، بمصر في الآونة الأخيرة، حلقات جديدة في سلسة كبت الفكر والإبداع والرأي بضغط الاتجاهات الدينية الإسلامية المتطرفة، باسم حماية الفضيلة وباسم الدفاع عن المقدسات، والفضيلة والمقدسات بريئتان من هذه المصادرات المتعسفة المظلمة.

فبعد الحكم بتغريم الشاعر عبد المعطي حجازي، جاء الحكم بمصادرة "مجلة ابداع" التي يرأسها حجازي نفسه، بسبب نشرها قصيدة بعنوان"شرفة ليلى مراد" لكاتب هذه السطور(وأعادتها الى الصدور حكم نهائي من المحكمة الادارية العليا)، ثم الحكم بتغريم د. جابر عصفور غرامة مالية كبيرة لأنه انتقد الشيوخ الذين يكفرون الكتاب والمثقفين، ثم مصادرة رواية "مترو" للكاتب الشاب مجدي الشافعي،ثم هياج شيوخ الازهر على تدريس "الايام" لطه حسين لتلاميذ الثانوية، ثم منع رواية" اسمه الغرام" للروائية علوية صبح من دخول مصر وكان، قبل ذلك بقليل، قد تم التحقيق مع كاتب هذه السطور بسبب قصيدة "شرفة ليلى مراد" التي اتهمها المتطرفون الدينيون بالإساءة الى الذات الالهية، وحكمت محكمة القضاء الاداري بسحب جائزة الدولة للتفوق في الادب منه. كما تم رفع دعوى قضائية من قبل شيوخ التطرف تطالب بسحب الجنسية المصرية من الكاتبة د. نوال السعداوي بسبب اتهامها بازدراء الاديان في روايتها "الاله يقدم استقالته في اجتماع القمة" وغير ذلك كثير كثير . وبالنظر المتأني الى هذه الحالات المتتالية يتوجب ان نلقي الضوء على بعض الجذور التاريخية والنظرية لهذه الأوضاع المعتمة.

غيض من فيض

ان القينا نظرة عابرة على مجتمعنا العربي كله، في السنوات القليلة الماضية، سنجد العديد من الحالات التي تمت فيها مصادرة اعمال ادبية وفنية وفكرية، بحجة ازدراء الاديان، سنقتصر منها على الاشارة الى امثلة قليلة:

مصادرة رواية" وليمة لاعشاب البحر" للكاتب السوري حيدر حيدر عام ٢٠٠٠، ومصادرة الرويات الثلاث: احلام محرمة وقبل وبعد وابناء الخطأ الرومانسي للكاتب محمود حامد عبد الرحمن وياسر شعبان عام ٢٠٠١.

(وكان توفيق عبد الرحمن شهيد الترف الديني حينما صودرت روايته "قبل وبعد" عام ٢٠٠١، ثم صار شهيد تطرف "بلطجة" الشوارع حينما دهسته عام ٢٠٠٨ سيارة ميكروباص في شارع احمد عرابي فمات) . ومصادرة كتاب "النبي" لجبران خليل جبران من تدريس بالجامعة الامريكية بالقاهرة، ومصادرة كتاب "ابي آدم" للكاتب الاسلامي المصري عبد الصبور شاهين(وهو المفكر الديني صاحب التقرير الذي حوكم بسببه نصر حامد ابو زيد قبل ذلك بثلاث سنوات. ثم منع الموديل من كلية الفنون الجميلة، وتحطيم تماثيل حسن حشمت. ثم مصادرة ديوان "شجري اعلى" للشاعر الاردني موسى حوامدة في عمان، ومحاكمة الشاعر الاردني إسلام سمحان بعد القبض عليه بسبب ديوانه "برشاقة ظل".

ومحاكمة الكاتبتين ليلى العثمان وعالية شعيب. والهجوم السلفي الكاسح على النص الشعري الغنائي "مجنون ليلى" شعر البحريني قاسم حداد وموسيقى اللبناني مارسيل خليفة في البحرين. وتهديد الجماعات الدينية المتطرفة للمفكر سيد القمني بالقتل بسبب مقالاته عن تاريخ الاديان المقارن. ثم رفع دعوى قضائية ضد القمني وحسن و هذا غيض من فيض اكتفي به الآن حنفي بسبب حصولهما على جائزة الدولة التقديرية.

القمع قديم لا حادث

والواقع ان تاريخ الثقافة العربية الاسلامية حافل بالعديد من حالات الصدام العنيف (الدموي احيانا) بين القمع(السياسي/ الديني) وبين حرية التعبير والفكر والابداع. ولاتخلو مرحلة من مراحل هذا التاريخ من واقعة فادحة دموية. وكذلك كان القرن العشرون كله: لم يخل عقد من عقوده من واقعة فادحة مدوية.

انقسام بين مرجعيتين

ثمة مشكلة رئيسية في مسار التاريخي منذ بدء النهضة العربية الحديثة قبل قرنين،تتثمل في ازدواج مرجعية هذه النهضة، بين المرجعية الدينية والمرجعية المدنية، وظلت هذه الازدواجية (في التعبير والتربية والفكر والنضال الوطني) تصبغ رؤى معظم رجال هذه النهضة بداءً من رفاعة الطهطاوي مروراً بالافغاني وابن باريس ومحمد عبده وسعد زغلول وقاسم امين وغيرهم، وصولا الى المفكرين القريبين والحاليين. قبل هذه النهضة، كان من الطبيعي، في العصور السابقة القديمة (التقليدية، او البدوية، او الاقطاعية) ان تكون المرجعية دينية يلجأ فيها الناس في حل مشاكلهم إلى الفتوى الدينية ورجال الدين، فلم تكن الدساتير ولا القوانين قد وضعت بعد. ولكن بعد نشوء الدولة الحديثة بمؤسساتها وتشريعاتها وقوانينها، وكان من المفترض ان تصبح المرجعية الوحيدة هي المرجعية المدنية، اي مرجعية القانون، كما جرى في كل الدول المدنية الحديثة. لكن ذلك لم يحدث في نهضتنا العربية ولذلك ظل المجتمع منقسماً ومشروخاً بين المرجعيتين: هذه تشده الى الامام، وهذه تشده الى الخلف، مما انتج ذلك "التفسخ" الرهيب الحاصل في جسم الكيانات العربية الراهنة. هذا التفسخ هو الذي يكمن وراء كل مشكلة تتضارب فيها الرؤيتان: الدينية والمدنية، ويتعارض فيها طرفا المقص : الإتباع والإبداع.

لا كهنوت

توسعت اختصاصات مجتمع البحوث الإسلامي (إحدى هيئات الازهر) في مكانه بلا تقدم. يتربص مجتمع البحوث الاسلامية بالأزهر بكل رأي مخالف له : سواء من خارج الدين الاسلامي ، اومن داخل الدين الاسلامي (كما يفعل مع الشيعة والمفكرين الاسلاميين المجددين) . وكثيراً ما يتحالف القضاء – الذي يقوم على نفس المرجعية الدينية – مع مجمع البحوث الاسلامية في منع فئات كاملة من حق المواطنة (المثال : البهائيون الذين يرفض القضاء إعطاؤهم هويات او اوراقاً ثبوتية ، ليصبحوا مواطنين بلا مواطنة)! . وواقع الحال ، ان مجمع البحوث الإسلامية – في موقفهم المترصد ذلك- مدعوم من السلطة السياسية خمس مرات مرة : لأنها تستشيره في كل شأن تقريباً (او في ما تريد ان تستشيره فيه). ومرة ثانية: لأن المادة الثانية من الدستور (التي تنص على ان مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع) تعطيه سنداً مكيناً وحماية أصلية، وهي المادة التي يستند اليها الشيوخ المتطرفون في كبت حرية الفكر والفن والأدب . وهي المادة التي تجعل التعليم والاعلام والثقافة التقليدية العامة حافلة بكل الوان التمييز ضد غير المسلمين، مما ينتج الكوارث الطائفية والفتن الدينية التي تكاد تعصف بالمجتمع المصري وتجعله يكاد يعيش على شفا حرب اهلية (ثقافية ودينية وفكرية). ومرة ثالثة حين نجد ان كل المواد الدستورية والقوانين الكافلة للحريات ، تذيل في ختامها بشرط يقول في اطار ثوابت الامة مما يفرغ كل مادة كافلة لحرية الرأي والتعبير والاعتقاد من حتواها! ومرة رابعة : حين صدرت فتوى مجلس الدولة عام ١٩٩٣ تمنح مجمع البحوث الاسلامية (حق الضبطية القضائية) على الكتب والمصنفات الثقافية والفنية (وكان صاحب هذه الفتوى هو المستشار طارق البشري الذي يعتبره الكثيرون واحدا من المفكرين الاسلاميين المستنيرين المعاصرين! ومرة خامسة: حين نجد ان توقيع مصر(ومعظم الدول العربية) على مواثيق حقوق الانسان الدولية مذيل دائماً بما يطيح بجدوى التوقيع وصدقيته التذييل يقول: (في إطار الشرعية الاسلامية) بهذه التدعيمات الخمسة صار مجمع البحوث الاسلامية يفتى في كل شأن حتى لو كان غير ديني ، ويصدر توصيات وتدخلات في الفن والشعر والموسيقى والسينما وسائر الفنون واكتسب بذلك قداسة لسيت له ، لمجرد ارتباطه بالأزهر الشريف، فصار يشكل – مع الشيوخ غير الأزهريين – كهنوتا دينيا يفرض رأيه على العباد والبلاد، ويحتكر (هو والشيوخ السلفيون) الدين لمنظوره السلفي الضيق على الرغم من زعمهم المتواصل بأنه لاكهنوت في الاسلام. والحقيقة هنا ان الدين مقدس، لكن مجمع البحوث الاسلامية غير مقدس ، ورجاله لسوا مقدسين ، انما هم رجال يصيبون ويخطئون .

> في مواجهة السلطة السياسية نفسها، عينت الدولة قاضيات سيدات، ودعت الى تحديد النسل، وأيدت زراعة الأعضاء، فوقف مجمع البحوث الاسلامية دون كل ذلك معتبراً ان هذه التوجهات هي" ضد الشريعة الاسلامية" فظل المجتمع يراوح مكانه بلا تقدم..

شكل مدني ومضمون ديني

جوهر الامر إننا- لانعيش في دولة مدنية كما نظن منذ عقود، بل دولة دينية بها بعض أشكال وهيئات ومؤسسات الدولة الدينية. ومن ثم فنحن من حيث الشكل الخارجي دولة" مدنية" ونحن من حيث المضمون الداخلي دولة"دينية".ذلك ان الدولة الدينية ، في المعنى العميق لها، ليست هي فقط الدولة التي يجلس فيها الشيوخ ورجال الدين على عرش السلطة السياسية والعسكرية، إنما هي- كذلك، أو اصلاً الدولة التي تلجأ الى التبرير الديني لكل إجراء سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو ثقافي من إجراءاتها. وهي الدولة التي لايتحرك مواطنوها الى بفتوى من شيخ: سواء كان هذا الشيخ هو المفتي الرسمي أو شيخاً من شيوخ الصحف أو شيخاً من شيوخ الفضائيات اوشيخاً من شيوخ "بير السلم".

وخلاصة ، من كل ذلك، انه لا منجاة لمجتمعاتنا العربية من المصير المخيف القادم، إلا بانتهاج سبيلين: الأول: هو الإيمان بان الدين مقدس، وبان الحرية مقدسة، كذلك. والمساحة المشتركة بينهما هي السجال الفكري الناضج المحترم، الخالي من التخوين أو التكفير أو إهدار الدماء، انطلاقا من المبدأ الإسلامي الرحيب"وجادلهم بالتي هي أحسن".

الدين تجربة مجازية رمزية، والإبداع تجربة رمزية. ينبغي ان تقرأ التجربتان قراءة تأويلية واسعة تنأى عن الضيق والحرفية والترصد وسوء النية. فالقراءة الضيقة الحرفية المترصدة للدين: تقزم" الدين نفسه والقراءة الضيقة الحرفية المترصدة للإبداع (التي تنصب من المنظور الديني قاضيا) "تضر" الدين والإبداع على السواء: إذ هي تحاصر الإبداع وتخنقه من ناحية، وهي تصور الدين جهماً متنعتاً باطشاً من ناحية اخرى !. ينبغي ان تكون القراءتان مفتوحتين ويكون تقويم أي شطط وتصحيح أي تجاوز في القراءتين المفتوحتين هو" المحاورة" لا"المصادرة".

الثاني: هو إنقاذ الدولة "المدنية" من براثن الدولة (الدينية) وذلك بوضع شعار ثورة ١٩١٩ "الدين لله والوطن للجميع" موضع النجاعة الدستورية والقانونية، بالنص الصريح في الدستور على مدنية الدولة المصرية، وبتعديل كل المواد في هذا الدستور التي "تشرعن" الفتنة الطائفية وتعطي غطاء دستورياً للقمع والتمييز وكبت حريات الرأي والاعتقاد والفكر والإبداع.

وينبغي على النخبة المثقفة والسياسية ان تواصل الضغط من اجل هذه التعديلات الدستورية، حتى يتم"فصل الدين عن الدولة" وحتى يتم تعديل مناهج التعليم وخطاب الإعلام ورؤى الأزهر والأوقاف والدعاة باتجاه المساواة الحقة الغائبة والمواطنة الحقة المغدورة.